

المقاومة الفلسطينية

مراحل التطور، وآفاق المستقبل

فرج شلهوب - الأردن

مدير تحرير صحيفة السبيل، متخصص في الشؤون الفلسطينية

ملخص البحث:

وقع الشعب الفلسطيني ضحية فكرة عنصرية صهيونية تسعى لاغتصاب أرضه عبر مزاعم توراثية، وضحية مؤامرة دولية تستهدف قسمة المنطقة العربية، وإخضاعها عبر التفيت والتلويح بالعصا الإسرائيلية الغليظة، وإدامة الذرائع للتدخل في شؤون المنطقة.

والشعب الفلسطيني ليس وحده المعنيّ بهذا الصراع ومواجهة المشروع الصهيوني، الذي ليس سوى رأس حربة للمشروع الغربي الذي يستهدف المنطقة العربية والإسلامية.

ولذا فإن المقاومة هي الخيار الاستراتيجي للشعب الفلسطيني، وهي الرد المناسب على جريمة الاحتلال، الذي لا يُسَلَّم بأيّ من الحقوق الفلسطينية إلا مكرهاً، وبدايات المقاومة الفلسطينية قديمة منذ وجد الاحتلال، وليس كما يزعم بعض السياسيين حينما يؤرخون لبداياتها بعد هذا التاريخ بعقود، تبعاً لهوى سياسي ساد في حقبة معينة.

لم تنشأ المقاومة الفلسطينية من فراغ، وإنما هي بالأساس رد فعل طبيعي وشرعي على جريمة الاحتلال، وتأخذ مشروعيتها وحقها في الاستمرار من استمرار جريمة الاحتلال ذاتها، وهي بالإضافة لذلك حق مشروع تكفله الشرائع السماوية؛ تماماً مثلما يكفلها القانون الدولي والمواثيق الإنسانية.

ظلت المقاومة الفلسطينية أو بالتعبير الدارج فلسطينياً «الكفاح المسلح» طريقاً وحيداً لاسترداد الأرض والحقوق، ومما لا شك فيه أنها حققت كسباً كبيراً من خلال انخراطها في الانتفاضة الأولى والثانية على صعيد إعادة تأهيل بنيتها وتطوير إمكاناتها، أو تعزيز شرعيتها بين الجمهور، ومن خلال نسج شبكة من العلاقات الداخلية والخارجية.

والمقاومة الفلسطينية ليست نبأً شيطانياً مُبَيَّنّاً عن الأم، كما أنها ليست في ضيق من الوقت، ولا في حاجة لاعتساف الخطوات أو الانكسار أو إجراء مقايضات صغيرة، طالما أن مسار الفعل، محلياً وإقليمياً، يتحرك وفق نسق صاعد، ومن الممكن - حسب رأي البعض - أن تلعب المقاومة الفلسطينية بصورة مباشرة أو غير مباشرة دوراً مهماً في تعزيز برنامج الاستقلال، والتحرر في المنطقة.

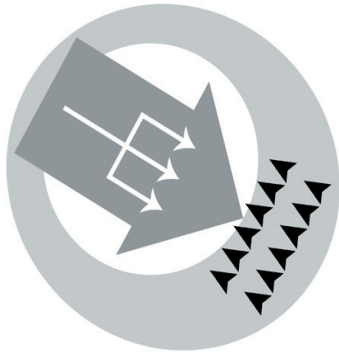
أفكار ومقتطفات

- إن ما تعرضت له فلسطين لم يكن استعمارًا عابرًا، ولا احتلالاً عسكريًا يستهدف استثمار الموارد والتمتع بخيرات البلاد، ولكن كان احتلالاً إحلاليًا استتصاليًا.
- في الشق الإنساني فالمسألة يتم اختزالها بأن فلسطين ليست سوى أرض بلا شعب تُمنح لشعب بلا أرض، وعليه أخذت محنة الشعب الفلسطيني المتمثلة باحتلال أرضه طابعها، ومنذ البدايات بأنها صراع وجود.
- إن أيّ قراءة تحاول الولوج لدراسة المقاومة الفلسطينية وتطورها، وترسم معالم مستقبلها، وما يمكن أن تذهب إليه أو تحققه في المستقبل، لا تستطيع أن تهمل البعد الإقليمي والدولي في الصراع على وفي فلسطين.
- الصراع في فلسطين صراع طويل، ولا يمكن حسمه بالتالي في جولة، أو اثنتين أو خلال سنة أو سنتين.
- ستظل أدوات هذه الشعب، مهما تطورت، وتضحياته مهما تعاظمت، قاصرة عن حسم الصراع مع هذا المشروع الضخم، إذا لم تلق الإسناد والإمداد، وما هو أكثر من ذلك من الأمة التي يتهددها جميعًا الخطر الصهيوني.
- مع كل التحولات والمكر اليهودي إلا أن الشعب الفلسطيني نظر إلى النشاط اليهودي بريبة كبيرة.
- التأريخ للمقاومة من حيث كونها فعلاً منظمًا وواسعًا، يمكن رصده بداية الثلاثينيات من القرن المنصرم.
- يمكن اعتبار الشيخ عز الدين القسام، القادم من جبلة في سوريا، فاتحة بلورة العمل الجهادي المنظم والأكثر تأطيرًا.
- بدأ القسام عمليات التجنيد والتدريب للفدائيين بسرية ودأب في حيفا ويافا والساحل الفلسطيني.
- بعد فشل تجربة القواعد الارتكازية وقدرة الاحتلال على ملاحقة ومحاصرة الخلايا الفدائية، انتقلت المقاومة لبناء قواعدها الثابتة في الضفة الشرقية (الأردن)، والتحول إلى تنفيذ العمليات عبر الحدود.
- لقد تأكد عجز النظام العربي وحرصه على النأي عن مسار العمل الفلسطيني المقاوم، بل ربما الاستعداد للتصادم معه إذا ما كان استمرار أدائه يقود إلى توتير الأوضاع الأمنية لهذه الأنظمة مع الاحتلال الإسرائيلي.

ملف التقرير - المقاومة

- برزت الصبغة الإسلامية في عمل المقاومة، مضموناً من حيث الشعار ونوعية الأداء والصورة أو من حيث المشاركة الفصائلية.
- غلب على هذه الانتفاضة (الأقصى ٢٠٠٠، ٢٠٠٤) صعود العمل العسكري وتطوير أدواته، وتراجع الأدوار الشعبية إلى مستويات أقل مما كانت في الانتفاضة الأولى.
- إن انتفاضة الأقصى جاءت بعد تعثر العملية السياسية في كامب ديفيد ٢ (عرفات - باراك) أيلول/ ٢٠٠٠ .
- استطاعت المقاومة أن تمتلك بعض قطع السلاح، وأن تنفذ عددًا من العمليات الفدائية ضد أهداف عسكرية إسرائيلية.
- حسب إحصائية لرئيس العمليات في الجيش الإسرائيلي الجنرال إيلي اميتاي، أمام لجنة الخارجية والأمن، تمت الإشارة إلى أنه من أصل ٦٣٠ قتيلاً إسرائيلياً في انتفاضة الأقصى، هناك ٤٥٥ إسرائيلياً قتلوا جراء عمليات استشهادية بنسبة تصل إلى ٧٥٪ من مجموع القتلى.
- يدخل ضمن نطاق العمليات الاستشهادية التي تنوعت أشكالها بين الحزام الناسف والعبوات التشغيلية وتفخيخ السيارات، عمليات اقتحام المستوطنات والمعسكرات الإسرائيلية، والتي عبّرت عن مستوى متقدم من الكفاءة والجرأة، وتطور التخطيط والتدريب لدى فصائل المقاومة.
- إن حرب الأنفاق وتوسيع التعاطي معها كتقنية قتالية غير مسبوقه، تزامن مع نجاح المقاومة في عمليات تفجير دبابة المير كافا الإسرائيلية الأكثر شهرة، والأكثر تحصيناً في العالم، حيث سجلت أول عملية تفجير للمير كافا في شباط من العام ٢٠٠٢ .
- من الإجحاف وصف مقاومة الشعب الفلسطيني بأنها «إرهاب»، بينما يتم غض النظر عن جريمة الاحتلال الإسرائيلي، ومنح الدولة المحتلة كل أسباب الرعاية والاحتضان.
- من المهم هنا بالنسبة للمقاومة أن توازن بين الحاجة للرد على الجريمة الجزئية للمحتل، والحاجة للمحافظة على مسار صاعد للفعل المقاوم لا يتم استنزافه في معارك جزئية.
- إن الأداء الأخير للمقاومة الفلسطينية في مواجهة الهجمات الأخيرة على غزة، عكست ارتقاء بعدة درجات في مستوى أداء المقاومة الفلسطينية.
- لولا جهود مؤمنة لأبناء الأمة، تعمل بعيداً عن الأنظار، تمد يد العون والمساعدة للمقاومة الفلسطينية، لكان الحال أشد تعقيداً، ولتعذرت إمكانيات استمرار المقاومة وتطورها، وتحقيقها هذا القدر من الإنجاز المشاهد.

- إن الواقع الفلسطيني الذي خضع لعقود طويلة تحت سطوة الاحتلال، قد تم اختراق صفوفه بالكثير من العملاء.
- ما لم يتم معالجة ظاهرة العملاء بصورة صحيحة وسليمة، في المواقع الشعبية والرسمية، فإن استنزافاً كبيراً في طاقة المقاومة سيظل مستمرًا.
- لعل مباطلة الكيان الصهيوني، وبناءه لاستراتيجيته على أساس فرض الحقائق على الأرض، وتقديس القوة، واعتبارها مفتاح حماية الأمن والمصالح الإسرائيلية، جعل من المتعذر التفاهم مع هذا الكيان خارج اللغة التي يتحدث بها.
- إن المقاومة الفلسطينية حققت كسبًا كبيرًا من خلال انخراطها في الانتفاضة الأولى والثانية على صعيد إعادة تأهيل بنيتها وتطوير إمكاناتها.
- بدخول أبرز قوى المقاومة (حماس) معترك العمل السياسي، وتشكيلها الحكومة بعد فوزها بأغلبية الأصوات، ارتقت المقاومة إلى مستويات مهمة في فرض حضورها، وريادتها في قيادة الشعب الفلسطيني.
- تحاول المقاومة الفلسطينية المزوجة بين الفعل السياسي والعمل العسكري؛ لزيادة المساحات غير الخاضعة لنفوذ وسيطرة جيش الاحتلال.
- إن المقاومة تدرك أنها ليست في ضيق من الوقت، ولا حاجة لاعتساف الخطوات أو الانكسار، أو إجراء مقايضات صغيرة، طالما أن مسار الفعل، محليًا وإقليميًا، يتحرك وفق نسق صاعد.
- ثمة من يرى أن المقاومة الفلسطينية يمكن لها أن تلعب، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، دورًا مهمًا في تعزيز برنامج الاستقلال والتحرر في المنطقة؛ في مواجهة مشروع التغريب والتبعية للمشروع الأمريكي / الإسرائيلي.
- تراجع المشروع الصهيوني في مقابل تقدم مشروع استقلال الأمة وتعزيز ريادتها، يعملان بشكل متوازٍ لإنجاز البيئة المناسبة لاحتضان المقاومة.
- المشروع الصهيوني في العقدين الأخيرين شهد تراجعًا كبيرًا.
- الإسرائيليون يعيشون مرحلة من التشكك في إمكانية استمرار دولتهم.
- اليوم يظهر أن معنويات الجندي الإسرائيلي تنهوى، ويعجز عن الدفاع عن نفسه، أو تحقيق انتصارات حاسمة في مجابهات مع فتيبة فلسطينيين لا يملكون عُدة ولم يتلقوا تدريبًا كافيًا.



المقاومة الفلسطينية مراحل التطور، وآفاق المستقبل

فرج شلهوب - الأردن

مدير تحرير صحيفة السبيل، متخصص في الشؤون الفلسطينية

بأن فلسطين ليست سوى أرض بلا شعب تُمنح لشعب بلا أرض، وعليه أخذت محنة الشعب الفلسطيني المتمثلة باحتلال أرضه طابعها، ومنذ البدايات بأنها صراع وجود، يتداخل فيه البعد العقائدي والسياسي والإنساني والاجتماعي، ويخضع في جزء كبير لترتيبات ذات بُعد تأمريّ دولي.

ولعل أي قراءة تحاول الولوج لدراسة المقاومة الفلسطينية وتطورها، وترسم معالم مستقبلها، وما يمكن أن تذهب إليه أو تحققه في المستقبل، لا تستطيع أن تهمل البعد الإقليمي والدولي في الصراع على وفي فلسطين.

فمنذ تبلورت الإرادة الاستعمارية الأوروبية مطلع القرن الماضي في تقسيم إرث الرجل المريض (تركيا) كان واضحاً أن ثمة إرادة دولية تخطط وترتب فلسطين مثلاً يختلف عما يرتب ويخطط لباقي المنطقة العربية والإسلامية من احتلالات، ولم يكن إصدار الحكومة البريطانية وعد بلفور (١٩١٧/١١/٢) بمنح وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وقبل أن تتمكن من فرض سيطرتها سوى على أجزاء يسيرة من أرض فلسطين، حيث لم تكن بعد قد احتلت سوى مدينة بئر السبع وبعض أجزاء النقب الفلسطيني - إلا رأس جبل

مقدمة لا بد منها:

مثل أي شعب احتُلت أرضه، وانتهكت مقدساته ونُهبت ثرواته، واعتُدي على كرامته، اختار الشعب الفلسطيني، وعن سابق وعي وتصميم، أن ينحاز إلى خيار الجهاد والمقاومة في سبيل تحرير أرضه وانتزاع حقوقه، وإذا كان قَدَر الكثير من البلاد العربية والإسلامية أن تتعرض للاستعمار في القرن الماضي، وأن تتمكن من تحقيق استقلالها، فإن المفارقة أنّ ما تعرضت له فلسطين لم يكن استعماراً عابراً، ولا احتلالاً عسكرياً يستهدف استثمار الموارد والتمتع بخيرات البلاد، ولكن كان احتلالاً إحلاليّاً استتصاليّاً، ينتزع الإنسان من أرضه، ويُلقى به خلف الحدود ليستجلب مُهَجَّرِينَ من أقطار الأرض ليحلهم مكانه وعلى أرضه، بمزاعم توراثية تدعي العودة إلى أرض الآباء والأجداد، والأخطر إلى الأرض التي أقطعها الله للشعب اليهودي خالصة من دون الناس، أرض الميعاد، وفي الشق الإنساني فالمسألة يتم اختزالها

الآن، لكن حسم الصراع بالكلية، وإنهاء هذا الجسم السرطاني المغروس في قلب الأمة، ستظل مهمة أكبر من إمكانات الفلسطينيين وحدهم، وإن كان يصح أنهم سيظلون رأس الحربة بالنسبة للأمة في منازل هذا العدو وإشغاله وإرباكه؛ إلى أن تحين ساعة الخلاص والانتصار الشامل.

نشأة المقاومة الفلسطينية وتطورها:

بدايات المقاومة الفلسطينية قديمة منذ وُجد الاحتلال، بوجهه الاستعماري/البريطاني، أو الإحلالي/الصهيوني، ويظلم بعض السياسيين الحقيقة حين يؤرخون لبداياتها بعد هذا التاريخ بعقود؛ تبعاً لهوى سياسي ساد في حقبة معينة، بل يمكن رصد بدايات للمقاومة الفلسطينية قبل الاحتلالين المشار إليهما أعلاه، ذات ارتباط بجهود المستعمرين والصهاينة المبكرة لتعزيز الاستيطان اليهودي في فلسطين أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، بيد أن المقاومة وقتذاك كانت عفوية غير منظمة وغير منسقة،

تغلب عليها أعمال الاحتجاج والاحتكاكات الجزئية.

ولعل ثورة البراق (١٩٢٩) شكّلت ذروة الرفض الفلسطيني للوجود اليهودي، ومحاولاته التسلسل قرياً من المقدسات الإسلامية في القدس، رغم أن

اليهود حتى ذلك الوقت لم يشكلوا دولتهم، ولم يكونوا سوى أقلية تحتمي بالمستعمرين البريطانيين. إلا أن التأريخ للمقاومة من حيث كونها فعلاً منظماً وواسعاً، يمكن رصده بداية الثلاثينيات من القرن المنصرم، فيما عُرف بثورة القسام والثورة الفلسطينية الكبرى، لتأخذ الأمور بعد ذلك تطوراً صعباً وهبوطاً، وصولاً إلى الوقت الراهن.

الجليد مما تخطط له بريطانيا العظمى (!!) ومن ورائها أوروبا الاستعمارية. وهو ما يذكر بمؤتمر «الساسة والخبراء» ١٩٠٦-١٩٠٧ برعاية هنري كامبل لبرمان رئيس وزراء بريطانيا، والذي دعا في حينه إلى ضرورة زرع جسم غريب في فلسطين يفصل ما بين مشرق العرب ومغربهم، ويكون رأس حربة وموقفاً متقدماً يسهم في إدامة نفوذ الحلفاء وتأمين مصالحهم في هذه المنطقة ذات الخصوبة الاستراتيجية. وهو ما يعني أن الشعب الفلسطيني وقع ضحية فكرة عنصرية صهيونية تسعى لاغتصاب أرضه عبر مزاعم توراتية، وضحية مؤامرة دولية تستهدف قسمة المنطقة العربية وإخضاعها عبر التفتيت والتلويح بالعصا الإسرائيلية الغليظة، وإدامة الذرائع للتدخل في شؤون المنطقة. هذه المقدمة كان لا بد منها بين يدي اللوج لقرأة الواقع الفلسطيني والمقاومة على وجه التحديد تاريخاً وتطوراً ومثالاً، ولسببين:

الأول: فهم أن الصراع في فلسطين صراع طويل، ولا يمكن حسمه بالتالي في جولة أو اثنتين أو خلال سنة أو سنتين.

الشعب الفلسطيني وقع ضحية فكرة عنصرية صهيونية تسعى لاغتصاب أرضه عبر مزاعم توراتية، وضحية مؤامرة دولية تستهدف قسمة المنطقة العربية وإخضاعها

والثاني: أن الشعب الفلسطيني ليس وحده المعني بهذا الصراع ومواجهة المشروع الصهيوني الذي ليس سوى رأس حربة للمشروع الغربي الذي يستهدف المنطقة العربية والإسلامية، وبالتالي ستظل أدوات هذا

الشعب مهما تطورت وتضحياته مهما تعاضمت قاصرة عن حسم الصراع مع هذا المشروع الضخم، إذ لم تلق الإسناد والإمداد، وما هو أكثر من ذلك، من الأمة التي يتهددها جميعاً الخطر الصهيوني، قد تنجح المقاومة الفلسطينية في كسب جولة أو أكثر من جولات هذا الصراع، وقد تمنع المشروع الصهيوني من التمدد، وقد تلجئه إلى الانكفاء والتراجع في بعض المحطات، وهو ما نجحت فيه بامتياز حتى

النظامي، وقد توزعت المشاركة الشعبية للفدائيين الفلسطينيين في هذه الفترة بين قوات الجهاد المقدس، وجيش الإنقاذ.

- عمليات الفدائيين بعد هزيمة الجيوش العربية: والتي أخذت طابع التسلل إلى الأراضي التي سيطر عليها الاحتلال في العام ١٩٤٨، وتنفيذ عمليات مقاومة، وغلب على هذه الأنشطة السريّة، وافتقارها للإمكانات، وتعرضها لقدر كبير من المخاطرة والملاحقة، واحتياجها للأرض التي تقف عليها بعدما تم حرمانها من التواصل مع العمق الشعبي الذي بات يعاني التشتت وقسوة اللجوء.

المرحلة الثانية وتمتد بين عامي

١٩٦٥-١٩٨٧:

وهي المرحلة التي شهدت ما يسمى بالانطلاقة المعاصرة للثورة الفلسطينية، وولادة عدد من الفصائل الفلسطينية المقاتلة (فتح، الشعبية، الديمقراطية، الصاعقة، وغيرها)، والتي هيمنت لاحقاً على منظمة التحرير، وقيادة العمل الوطني الفلسطيني.

وإذا كانت منطلقات العمل لمجمل هذه المنظمات (أغلبها تأسس قبل احتلال ١٩٦٧) تحرير كامل التراب الفلسطيني، واعتبار الكفاح المسلح الطريق الوحيد للتحرير، فقد انتهت إلى ما عُرف لاحقاً بالبرنامج المرحلي لمنظمة التحرير؛ وصولاً إلى توقيع اتفاقات أوسلو، وتشكيل السلطة الفلسطينية.

ولعل هذه المرحلة شهدت تحولات في الأداء المقاوم وقفزت نوعية، واستجمعت قدرًا من الإمكانيات التسليحية والتدريبية والبشرية والمالية، ما شكّل في بعض مراحلها شبه دولة في المنفى، الأردن (١٩٦٩-١٩٧١)، ولبنان (١٩٧٢-١٩٨٢).

ويشير عدد من الباحثين إلى أن هذه الفترة يمكن تقسيمها إلى خمس محطات رئيسية:

- المرحلة الجينية (١٩٦٥-١٩٦٧): حيث

ويمكن للدارس أن يقسم الفترة الممتدة بين عامي ١٩٣٣ و٢٠٠٦ إلى ثلاث مراحل رئيسية؛ لكل منها سماتها وظروفها وتفصيلاتها:

المرحلة الأولى: تمتد بين عامي

١٩٦٥-١٩٣٣:

تمتاز هذه المرحلة بأنها مرحلة البدايات، وبوجود المقاومة بصورة رئيسية على الأرض الفلسطينية ومزجها بين الأداء الشعبي والأداء التنظيمي غير المتطور، والذي أخذ في بعض المراحل شكلاً رسمياً، مع قلة الإمكانيات وقلة الخبرة والافتقار إلى شمولية الفعل جغرافياً، وعدم تبلور الأهداف بصورة واضحة ودقيقة.

وتشتمل هذه المرحلة على ثلاث محطات رئيسية:

- ثورة القسام (١٩٣٥) والثورة الفلسطينية الكبرى (١٩٣٦-١٩٣٩): حيث يمكن اعتبار الشيخ عز الدين القسام القادم من جبلة في سوريا، فاتحة بلورة العمل الجهادي المنظم والأكثر تأطيراً، فقد استشعر القسام مبكراً الخطر الصهيوني على فلسطين، ورأى -ضمن أمور أخرى- ضرورة ضرب جذوره قبل أن يكتب له التمكين، مُطْلِقاً صرخته الشهيرة إنه «جهاد نصر أو استشهاد».

ولعل شهادة الشيخ ورفاقه، وما كان بدؤه من تعبئة وتجميع هو ما أضرم نار الغضب في الشارع الفلسطيني؛ لتنتلق من بعد ذلك الثورة الفلسطينية الكبرى، والتي امتدت على مدى ثلاث سنوات (١٩٣٦-١٩٣٩) تراوح فيها فعل الثورة بين المد والجزر.

- المشاركة الفلسطينية في حرب ١٩٤٧-١٩٤٨:

وهي تجربة بدأت قوية عبر الإفادة من الزخم الشعبي الفلسطيني وتأطير جزء منه؛ لتنتهي إلى حالة من التحييد بفعل أخذ الجيوش العربية - التي دخلت إلى فلسطين للمشاركة في الحرب - العباء الأساسي في القتال، وتحول القتال إلى الطابع

الجبهة الشرقية، وعنوانها الحرب العراقية الإيرانية، حيث تم التركيز عريئاً على تداعيات هذا الصراع ضمن أجنادات دولية تتجاوز الإقليم.

المرحلة الثالثة: تمتد من العام ١٩٨٧ وحتى تاريخه :

ويمكن تقسيمها إلى ثلاث محطات:

المحطة الأولى: الانتفاضة الفلسطينية الأولى (١٩٨٧-١٩٩٤)، والتي عُرفت بثورة المساجد وثورة أطفال الحجارة، والتي شكّلت بحق أهم محطات التحول في مسار العمل الفلسطيني المقاوم على أربعة مسارات مهمة:

أ- بروز الصبغة الإسلامية في عمل المقاومة، مضموناً من حيث الشعار ونوعية الأداء والصورة، أو من حيث المشاركة الفصائلية، حماس والجهاد الإسلامي.

ب- نقل ثقل العمل المقاوم من الخارج إلى الداخل وبفعالية متواترة، وأداء استثنائي متميز فاجأ الاحتلال على أكثر من صعيد؛ سواء في نوعية الجيل الذي قاد المقاومة عمرًا، وظروف نشأة (تحت حراب الاحتلال)، أو مستوى الجسارة والقدرة على الاستثمار الإعلامي، وهو ما عبّر عنه رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو بانقلاب الصورة، حيث نجح الفلسطينيون بتقديم أنفسهم كضحايا يقاتلون بحجارتهم الصغيرة وأجساد أطفالهم جبروت دولة الاحتلال المجرمة والمتغطرسة، والتي قامت دعايتها لعقود على استدراج العطف الدولي على أساس من المظلومية اليهودية عبر التاريخ.

ج- إعادة المبادرة إلى الفعل الشعبي (نساء، أطفال، رجال، مدن وقرى ومخيمات).

د- تطوير أدوات العمل وتنوع أساليب المقاومة، وهو ما سيأتي تفصيله تاليًا.

المحطة الثانية: انتفاضة الأقصى (٢٠٠٠-٢٠٠٤)، والتي يمكن اعتبارها بأنها استئناف أو امتداد

بداية التشكل للمجموعات الفدائية للفصائل الرئيسية في العمل الفلسطيني، والقيام بعدد من العمليات العسكرية.

- مرحلة القواعد الارتكازية (١٩٦٧): بعد احتلال الكيان الصهيوني لباقي الأراضي الفلسطينية في غزة والضفة، حيث عمدت فصائل المقاومة إلى تأسيس خلاياها السرية في المناطق المحتلة عام ٦٧، وتفعيل عملياتها ضد الاحتلال انطلاقًا من داخل الأراضي المحتلة.

- مرحلة حرب الشعب (١٩٦٨-١٩٧٠): بعد فشل تجربة القواعد الارتكازية، وتنامي قدرة الاحتلال على ملاحقة ومحاصرة الخلايا الفدائية، انتقلت المقاومة لبناء قواعدها الثابتة في الضفة الشرقية (الأردن)، والتحول إلى تنفيذ العمليات عبر الحدود.

- المرحلة الانتقالية (١٩٧١-١٩٧٣): والتي انطوت على جملة من المراجعات لخطة وأساليب العمل، ومن جملة ذلك إعادة النظر في استراتيجية «حرب الشعب» بعد تبلور اليأس من وجود «الجبهة العربية المساندة»، والتي يُفترض أن تقف من وراء حرب العصابات، والحرب الشعبية التي تخوضها المقاومة، خصوصًا وقد تأكد عجز النظام العربي، وحرصه على النأي عن مسار العمل الفلسطيني المقاوم، بل ربما الاستعداد للتصادم معه إذا ما كان استمرار أدائه يقود إلى توتير الأوضاع الأمنية لهذه الأنظمة مع الاحتلال الإسرائيلي.

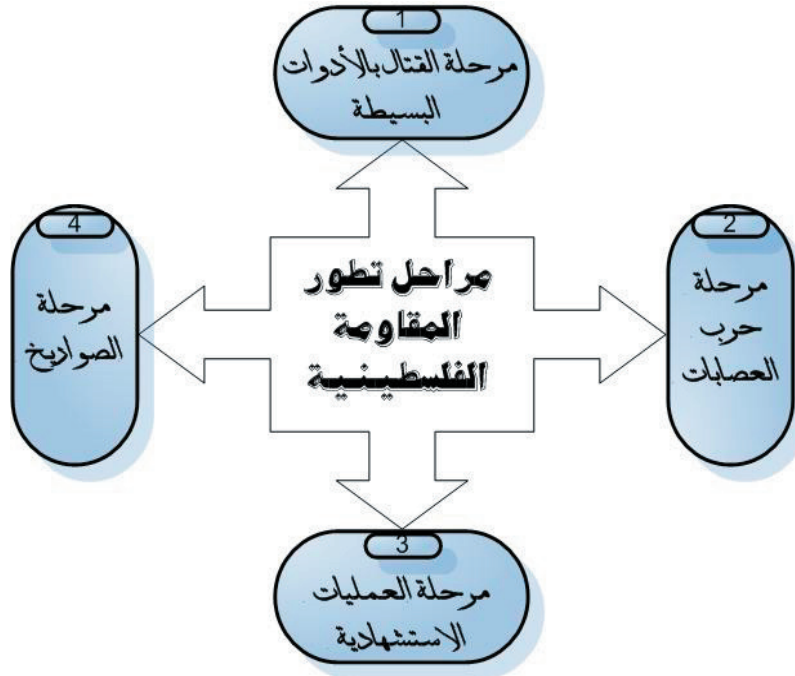
- مرحلة النمو النظامي (١٩٧٤-١٩٨٢): حيث توجهت الإرادة باتجاه تكريس تشكيلات عسكرية نظامية إبان المرحلة اللبنانية من عمر العمل الفلسطيني.

- مرحلة خلط الأوراق (١٩٨٢-١٩٨٧): حيث تراجع الأداء العسكري وتبعثرت القوات، وتراجعت فعالية وحضور منظمة التحرير، وبدأت مرحلة عربية من التركيز على خطر جبهات طارئة، فيما عُرف بخطر

المقاومة الفلسطينية في شكلها الجديد: تطور الأداء والإمكانات:

يمكن رصد تطور المقاومة الفلسطينية في شكلها الجديد، بعد الانتفاضة الأولى، ضمن أربع مراحل رئيسية، عبّرت -بمجموعها- عن نقلات كبيرة في الأداء وامتلاك أدوات القتال، وهو ما يصلح كقاعدة مهمة لقراءة مستقبل المقاومة، خصوصاً وقد قطعت كل هذا الشوط، ونجحت في حرق مراحل كثيرة. المرحلة الأولى: وهي مرحلة القتال بالأدوات البسيطة، الحجر والمقلع وعبوات المولوتوف ..

لانتفاضة الأولى، وإن كان بأساليب جديدة، حيث غلب على هذه الانتفاضة صعود العمل العسكري وتطوير أدواته، وتراجع الأدوار الشعبية إلى مستويات أقل مما كانت في الانتفاضة الأولى، دون إغفال أن انتفاضة الأقصى جاءت بعد تعثر العملية السياسية في كامب ديفيد ٢ (عرفات - باراك) أيلول/ ٢٠٠٠، وفي ظل وجود سلطة الحكم الذاتي الفلسطيني في الضفة وغزة، وبعد إنجاز المقاومة اللبنانية لتحرير الجنوب عبر ضغط الفعل العسكري المقاوم، وليس عبر التفاوض والعمل الدبلوماسي.



وصولاً إلى استخدام السكاكين في مرحلة لاحقة من عمر الانتفاضة الأولى، وهي مرحلة عبّرت بوضوح عن شخّ الإمكانات وغزارة الإرادة المصممة على القتال لدى الشعب الفلسطيني.

المرحلة الثانية: حرب العصابات: حيث استطاعت المقاومة أن تمتلك بعض قطع السلاح، وأن تنفذ عددًا من العمليات الفدائية ضد أهداف عسكرية إسرائيلية ثابتة أو متحركة، وقد شكّلت عمليات المجموعات التي يقودها الشهيد عماد عقل ذروة النجاح على

المحطة الثالثة: مرحلة تثبيت حضور القوى الإسلامية: سواء في ساحة العمل المقاوم أو في الشارع الشعبي والمؤسسات الرسمية، والتي كرّست جملة من الاعتبارات: أهمها إعادة الاعتبار للخيار المقاوم بعد ما تم إهداره من قِبَل السلطة الرسمية الفلسطينية لسنوات، وتغليبها الخيار التفاوضي، أو إمكانية الجمع بين العمل السياسي، والانخراط في المهمات القتالية.

في جهد موصول لزيادة مدى تلك الصواريخ وقدرتها على الإصابة، وزيادة المادة المتفجرة التي تحملها، وقد أشار المحلل العسكري الإسرائيلي زئيف شيف في تعليق له على ما تمثله هذه الصواريخ من تهديد على الأمن الإسرائيلي، بأنها بدأت تتحول إلى خطر استراتيجي، ومن الممكن أن تتحول إلى خطر وجودي، إذا استطاعت المقاومة الفلسطينية نقلها إلى الضفة الغربية، حيث التماس مع العمق الاستراتيجي للدولة الإسرائيلية، وتهديد المنطقة الأكثر حيوية: سكايتًا وأمنيًا بين القدس وتل أبيب، حيث تتضاءل المسافات، وهو ما يعني وضع الأمن الإسرائيلي رهن عمليات إطلاق صواريخ القسام.

وضمن هذه المرحلة أبدعت المقاومة ما اصطلح على تسميته بحرب الأنفاق، وهي التقنية التي أسقطت نجاعة الخطة الأمنية الإسرائيلية القائمة على فكرة بناء الجدار العازل؛ باعتبار ذلك الوسيلة الأنجع لمنع العمليات الاستشهادية.

ولعل استثمار الأنفاق لتفجير المراكز والأبراج العسكرية الإسرائيلية حول قطاع غزة سدّد ضربة قوية للوجود العسكري الإسرائيلي هناك، وهو ما أكدّه المحلل

استثمار الأنفاق لتفجير المراكز والأبراج العسكرية الإسرائيلية حول قطاع غزة سدّد ضربة قوية للوجود العسكري الإسرائيلي

العسكري الإسرائيلي لهارتس زئيف شيف. ومن المثير للإسرائيليين أن حرب الأنفاق وتوسيع التعاطي معها كتقنية قتالية غير مسبوقه، تزامن مع نجاح المقاومة في عمليات تفجير دبابة الميركافا الإسرائيلية الأكثر شهرة والأكثر تحصينًا في العالم، حيث سجّلت أول عملية تفجير للميركافا في شباط من العام ٢٠٠٢.

وبالتوازي مع كل هذه الجهود استطاعت المقاومة الفلسطينية أن تُدخل إلى فلسطين كميات كبيرة من السلاح، عبر الأنفاق في غزة أو عبر تجنيد العديد من الجهات لشراء السلاح وتهريبه، وتعزيز وسائل الإمداد وتنويعها، كما استطاعت أن تدرّب عددًا من

هذا الصعيد؛ حيث بدأت في غزة وانتقلت إلى الضفة، واستطاعت المقاومة خلال هذه الفترة أن تبني خلاياها الأمنية والعسكرية، وأن تبدأ عمليات حثيثة من التزود بالقنابل والأسلحة الخفيفة، وأن تطور قدراتها التدريبية والتخطيطية، ووسائل جمع المعلومات والرصد والتخفي.

المرحلة الثالثة: مرحلة العمليات الاستشهادية وتصنيع الأحزمة الناسفة: وهي المرحلة التي استطاعت أن تنقل فعل المقاومة إلى مساحات أكثر تأثيرًا، وأن تفرض نوعًا من توازن الرعب مع الاحتلال، واستطاعت أن توازن ميزان الخسائر بين الجانبين الفلسطيني والإسرائيلي، وأن تنقل نسبة الشهداء الفلسطينيين إلى القتلى الإسرائيليين من ١:١٠ في الانتفاضة الأولى؛ ليصبح ١:٣ في الانتفاضة الثانية، وحسب إحصائية لرئيس العمليات في الجيش الإسرائيلي الجنرال إيلي اميتاي أمام لجنة الخارجية والأمن، تمت الإشارة إلى أنه من

أصل ٦٣٠ قتيلًا إسرائيليًا في انتفاضة الأقصى، هناك ٤٥٥ إسرائيليًا قُتلوا جراء عمليات استشهادية بنسبة تصل إلى ٧٥٪ من مجموع القتلى.

ويدخل ضمن نطاق العمليات الاستشهادية التي تنوعت أشكالها

بين الحزام الناسف والعبوات التشغيلية، وتفخيخ السيارات، عمليات اقتحام المستوطنات والمعسكرات الإسرائيلية، والتي عبرت عن مستوى متقدم من الكفاءة والجرأة وتطور التخطيط والتدريب لدى فصائل المقاومة.

المرحلة الرابعة: مرحلة الصواريخ وصراع الأدمعة: حيث استطاعت المقاومة امتلاك ناصية التصنيع العسكري، وإن كان بوسائل أولية غير متطورة، إلا أنها قفزت وفي وقت قليل إلى مستويات مؤثرة، فثمة تصنيع للعبوات الناسفة والقنابل وقاذفات الأريبيجي، وإنتاج نسخة خاصة من العوزي الإسرائيلي، وفي ذروة ذلك تقنية تصنيع الصواريخ التي تعمل المقاومة

بدأت تفكر جديدًا في رسم استراتيجية جديدة، سواء لجهة نوعية التسليح والتدريب الذي تسعى لامتلاكه، أو طبيعة الاستعدادات الميدانية على الأرض التي تحاول أن تؤسس لها.

ويمكن للمراقب أن يلحظ أن أداء المقاومة الفلسطينية في مواجهة الهجمات الأخيرة على غزة، عكس ارتقاءً بعدة درجات في مستوى الأداء والقدرة على تثبيت مستوى من الفعل الردعي والميداني في ذات الوقت، وعلى نحو أقر فيه رئيس الوزراء الإسرائيلي أن الحرب على غزة لم تحقق أهدافها، وأن على «إسرائيل» أن تنظر في وسائل أخرى، لوقف إطلاق الصواريخ من غزة وإنقاذ حياة الجندي الإسرائيلي الأسير، وهو ما يعزز ضرورة بناء المقاومة الفلسطينية استراتيجية متكاملة، توفر شرطين على الأقل في المرحلة الراهنة:

الأول: القدرة على امتلاك وسائل ردعية، قد تكون العمليات الاستشهادية في العمق الإسرائيلي، وبناء منظومة للصواريخ وتطويرها جزءًا مهمًا منها، تجعل الاحتلال غير مطلق اليدين في شنّ العدوان على الفلسطينيين عبر الجو أو عبر الاجتياحات الأرضية كلما عنّ له ذلك.

والثاني: قدرة ميدانية تستطيع الصمود في وجه الاجتياحات، وتكبيد الاحتلال خسائر فادحة، إذا ما فكر باقتحام المدن والبلدات الفلسطينية، وذلك من خلال التزود بالوسائل القتالية المناسبة، وبناء الاستحكامات والخطط العسكرية المؤهلة لاستيعاب الهجمة الإسرائيلية وامتصاص طاقتها.

عوامل قوة، ونقاط ضعف:

يتفق خبراء الاستراتيجية العسكرية على أن نجاح أي مقاومة رهن توفر ثلاثة شروط:

أ- الأرض أو المحيط الذي تتحرك فيه المقاومة.

ب- العمق التكتيكي.

ج- العمق الاستراتيجي.

كوادرها الفاعلة على تصنيع بعض صنوف السلاح فضلاً عن إتقان استخدامه، وتعلم المزيد من فنون التخطيط العسكري، في الداخل والخارج بهدف تطوير بنيتها العسكرية.

ولعل ما سرّبه بعض وسائل الإعلام الإسرائيلية عن أسلحة تم تهريبها إلى غزة، يعطي صورة عن الوضع وإمكانات تطويره، وأن المقاومة تعمل باجتهاد وخطّة كبيرة على تعظيم مخزونها من السلاح وتنويعه، وأن هذا الأمر يأخذ حيزًا كبيرًا من تفكيرها خصوصًا لجهة نوعية السلاح وكمياته وأفضلية تخزينه، مع العمل بمثابرة على محاكاته تصنيعًا وتطويرًا.

المقاومة الفلسطينية بين الفعل ورد الفعل:

لا شك أن المقاومة الفلسطينية لم تنشأ من فراغ، وأن المقاومة بالأساس هي رد فعل طبيعي وشرعي على جريمة الاحتلال، تأخذ مشروعيتها وحقتها في الاستمرار من استمرار جريمة الاحتلال ذاتها، وهي بالإضافة لذلك حق مشروع تكفله الشرائع السماوية تمامًا مثلما يكفلها القانون الدولي والمواثيق الإنسانية.

وإذا كانت المقاومة رد فعل على جريمة الاحتلال، فهي من زاوية أخرى حالة إبداعية من الفعل الاستثنائي، ولا يقلل من قيمتها أن جزءًا من أداؤها يجيء في سياق رد الفعل على جريمة للمحتل هنا أو هناك.

ومن الواضح أن قوى المقاومة الفلسطينية تميز وتوازن بين الحاجة للرد على الجريمة الجزئية للمحتل والحاجة للمحافظة على مسار صاعد للفعل المقاوم لا يتم استنزافه في معارك جزئية ضمن سياق الفعل ورد الفعل الآني، وهو ما يفرض عليها ضرورة رسم معالم استراتيجية شاملة للتحرير، لا يتم استنزافها أو استنزافها في خوض معارك جانبية وخارج سياق ما تُرتب وتخطط له ضمن استراتيجيتها الكلية، ولعل المقاومة الفلسطينية بعد أن قطعت شوطًا مهمًا في بناء الذات، وتحديدًا بعد خروج الاحتلال من غزة،

القريب والبعيد، وكانت قوات أمن السلطة- في الغالب- أداة تعمل بصورة سلبية ضد المقاومة، وربما كان لأجزاء منها تواطؤات عميقة مع المحتل، في مراحل معينة، إذا لم نقل أكثر من ذلك.

العمق الاستراتيجي: وهو الدائرة الأوسع في دعم وإسناد المقاومة، والتواصل معها وتوفير متطلباتها والتعويض عن خسائرها وتأمين احتياجاتها، ففي الحالة اللبنانية شكّلت إيران وسوريا عمقاً استراتيجياً مهماً وفاعلاً بالنسبة للمقاومة، وهو ما وفّر لها أسباب الاستمرار والتطور والصمود والانتصار، وهو ما لم يتوفر مثله للمقاومة الفلسطينية، التي يمنع الحصار تزويدها بالسلاح من دول الجوار العربي، ويوقع من يمدّها بالسلاح تحت طائلة العقوبة والمسؤولية، بل إن أطرافاً فلسطينية تمارس دوراً على هذا الصعيد، وما تدمير الأنفاق على الحدود الفلسطينية المصرية، ونشر آلاف الجنود المصريين إلا صورة من صور الحصار.

وبالطبع لا يمكن إغفال أمور أخرى لا تقل أهمية عن كل ما سبق، منها أن الواقع الفلسطيني الذي خضع -لعقود طويلة- لسطوة الاحتلال، قد تم اختراق صفوفه بالكثير من العملاء، تحت ضغط الحاجة، أو بفعل عمليات الإسقاط، وما لم يتم معالجة ظاهرة العملاء بصورة صحيحة وسليمة في المواقع الشعبية والرسمية، فإن استنزافاً كبيراً في طاقة المقاومة سيظل مستمرًا، وهو ما يعني حاجة المقاومة ضمن شروط النجاح، أن تحافظ على قدر عالٍ من السرية لأداءاتها وتأمين تحركات كوادرها.

ولا يمكن إغفال أهمية أن تتجاوز فصائل المقاومة الخلافات بينها، وصولاً لحالة شاملة من التنسيق والتكامل، وتنظيم الأداء ضمن خطة مشتركة، وتكثيف العمل للحصول على وسائل قتالية ذات كفاءة تسمح بالاستمرار في مواجهة الاحتلال وصولاً لهزيمته، سواء عبر التزود من مصادر وراء الحدود، أو عبر تطوير إمكانات التصنيع الذاتي،

ولعل نظرة فاحصة لوضع المقاومة الفلسطينية تكشف أن ثمة نواقص كثيرة تحتاج للاستكمال، رغم تحقيق هذه المقاومة نجاحات كبيرة في ظل انكسار الميزان الاستراتيجي بينها وبين الاحتلال بصورة مذهلة، ووجود أوضاع غاية في الصعوبة والتعقيد تواجه عمل وتطور أداء المقاومة.

فالأرض الفلسطينية تكاد تكون بصورة كاملة خاضعة لسيطرة الاحتلال، وباستثناء قطاع غزة، محدود المساحة (٣٦٠ كم^٢)، والمحاصر من كل الجهات وذي الطبيعة الجغرافية المكشوفة، حيث لا جبال ولا غابات، فإن الأرض الفلسطينية مُسيطر عليها من قبل جيش الاحتلال بصورة مطلقة، حدود ومعابر.. فضاء وماء وخطوط تواصل، أو اتصال فيما بين البلدات الفلسطينية ذاتها، ولم يكتف الاحتلال الإسرائيلي بالسيطرة العسكرية على الأرض، فأضاف إلى ذلك سيطرة سكانية عبر بناء عشرات المستوطنات الإسرائيلية التي تعمل على تجزئة الجغرافيا الفلسطينية ومنع تواصلها؛ فضلاً عن سيطرتها على المناطق الاستراتيجية والحيوية وطرق المواصلات، مما يُفقد المقاومة أهم عناصر الفعل والتطور، وهو السيطرة على أرض تُشكل ملاذاً آمناً للمقاومين، ومكاناً للتدريب والتحرك الآمن، والتجميع وتخزين السلاح ووسائل القتال.

العمق التكتيكي: وهو المعبر عنه بالشعب الملتف من حول المقاومة، والذي يشكل الحاضنة والبيئة لنشاطها وتحركها، وما يتوافر لهذا الشعب من إمكانات فعل (مؤسسات شعبية أو رسمية أو شبه رسمية)، وإذا كان الشعب والجيش اللبناني شكلاً في الحالة اللبنانية عمقاً تكتيكيًا للمقاومة هناك في أهم مراحل إنجازها، فإن الوضع في فلسطين كان واقعاً تحت قسمة أو سلو، وموزعاً بين خيار التسوية والتنسيق الأمني مع المحتل وبناء سلطة حكم ذاتي، وخيار المقاومة التي تتعرض للملاحقة والمطاردة، ويفرض عليها الحصار من العدو والشقيق والجار

على جريمة الاحتلال، الذي لا يسلم بأيّ من الحقوق الفلسطينية إلا مُكرهًا، وهو ما تحقق بالفعل في غزة وقبله في لبنان، بينما فشل عقد كامل من المفاوضات في تحصيل شيء معتبر من الاحتلال.

ولعل مفاصلة الكيان الصهيوني، وبناءه لاستراتيجيته على أساس فرض الحقائق على الأرض، وتقديس القوة؛ باعتبارها مفتاح حماية الأمن والمصالح الإسرائيلية - جعل من المتعذر التفاهم مع هذا الكيان خارج اللغة التي يتحدث بها ولا يفهم سواها، أي عبر ممارسة الكفاح المسلح والضغط على عصب الاحتلال لانتزاع الحقوق، ويمكن رصد حالات كثيرة من فرض التراجع على المحتل والإقرار ببعض الحق الفلسطيني، تحت ضغط العمل المقاوم، لعل أهمها الانسحاب من لبنان والانسحاب من غزة، وعمليات تبادل الأسرى الكثيرة مع المقاومين الفلسطينيين واللبنانية، وكسر إرادة المحتل فيما يخص تفكيك المستوطنات في غزة أولاً وتاليًا الضفة.

الفصائل الفلسطينية والسلطة ومرحلة جديدة من المقاومة:

ابتداءً من انخراط حركة المقاومة الإسلامية «حماس» في عملية الانتخابات للمجلس التشريعي الفلسطيني، وفوزها بأغلبية مقاعد المجلس، وتشكيلها للحكومة... طرأ وضع جديد في تركيبة السلطة الفلسطينية، أبرز سماته وجود حركة مقاومة بامتياز في سُدّة صنع القرار السياسي والأمني للسلطة، وهو ما طرح العديد من التساؤلات.. أهمها مسألتين:

الأولى: هل يمكن لحركة حماس أن تجمع بين خيار المقاومة والعمل السياسي؟ وإلى أي مدى

دون أن تهمل المقاومة عنصر التدريب ورفع كفاءة المقاتلين على استخدام صنوف السلاح المختلفة، واستخدام تكتيكات الحرب ورسم خططها، وبناء الاستحكامات العسكرية، وتحصين خطوط الدفاع وفق أرفع ما وصلت إليه خبرة المقاومة على هذا الصعيد.

المقاومة بين الثوابت والمتغيرات:

ظلت المقاومة الفلسطينية، أو بالتعبير الدارج فلسطينيًا «الكفاح المسلح»، طريقًا وحيدًا لاسترداد الأرض والحقوق، كما في مواد الميثاق الوطني الفلسطيني، قبل تعديل (٩٥)، وفي شعارات وأدبيات فصائل المقاومة، قبل أن تنتقل منظمة التحرير إلى تبني مشروع «الحل المحلي»، والمزاوجة بين الكفاح

المسلح والعمل السياسي «المفاوضات» في النصف الأول من سبعينيات القرن المنصرم، لتنتهي الأمور لاحقًا، وبدءًا من توقيع اتفاق أوسلو، إلى اعتبار المفاوضات والخيار السلمي، طريقًا وحيدًا للوصول للحقوق واستعادة الأرض، وفي السياق جرى تجريم العمل المقاوم، تحت اشتراط الإدارة الأمريكية والاحتلال الإسرائيلي؛ ضمن وثائق الاعتراف المتبادلة بين «إسرائيل» ومنظمة التحرير، أن تقر هذه الأخيرة بضرورة «نبد الإرهاب»، وهو ما ينطوي على الإقرار الضمني بأن المقاومة إرهابًا.

بيد أن دخول القوى الإسلامية على خط المقاومة، أواسط الثمانينيات وتعزيز حضورها بعد أوسلو (٩٤)، وتمكنها بعد انتفاضة الأقصى (٢٠٠٠)، أعاد الأمور إلى نصابها الصحيح، وهو أن المقاومة هي الخيار الاستراتيجي للشعب الفلسطيني، وأنها الرد المناسب

الاعتبار، ضمن سياق رسم التصور وحسم الإجابة على هذه المسألة:

أ- تحييد قوى الأمن الفلسطينية عن لعب أي أدوار سلبية أو متعارضة مع أداء المقاومة، وهو ما اشتمل على وقف عمليات المطاردة والملاحقة والمساءلة والرصد.

ب- إنشاء قوى أمنية (القوة التنفيذية) تتمتع بشرعية السلطة تستوعب أعدادًا كبيرة، وتتزود بالسلح بصورة رسمية، وتحصل على التدريب، ويمكن اعتبارها امتدادًا للمقاومة وسندًا لها، كما ظهر في أكثر من اجتياح لغزة.

ج- التقدم نحو إعادة صياغة الواقع المؤسسي الفلسطيني، من حيث الولاء والنظرة للمقاومة، ففي

حين تراخت قبضة فريق أو سلو في تصريف الأمور، وما يعنيه ذلك من إقصاء المقاومين، ومن يعبر عن خطهم السياسي عن دوائر الفعل والتأثير، تم تعزيز حضور ونفوذ شخصيات هي

بالأساس محسوبة على مربع المقاومة، ضمن عملية إحلال واستبدال يمكن أن تشهد تسارعًا وتعزيزًا، إذا ما نجحت حماس في كسر الحصار المالي والاستمرار في تصريف شؤون السلطة في الأيام القادمة.

د- توسيع إطارات عمل وحضور قوى المقاومة، شعبيًا ورمسيًا، وضمن دائرة العلاقات العربية والإسلامية، وهو ما سينعكس بالضرورة على تحسين الإمكانيات، وتطوير القدرات المالية العسكرية واللوجستية للمقاومة.

وهذا بمجموعه، يؤشر أن ثمة واقفًا جديدًا يتشكل، لا تزال بواده توحى بإمكانية تعزيز وتطوير أداء المقاومة، وإذا ما أحسن استثمار المتغيرات فيمكن أن نشهد ارتقاءً وتحولاً كبيراً في أداء المقاومة في فلسطين.

يمكن أن يُشكّل دخول حماس لهذا المعترك إضافة لمسيرة العمل المقاوم وليس انكسارًا لأدائه، عبر إعادة «تأهيل» أكبر قوى المقاومة الفاعلة، وسلخها عن جوهر برنامجها المقاوم؟

ورغم أن حماس دخلت الانتخابات التشريعية تحت شعار «حماية خيار المقاومة» إلا أن التشكيك في إمكانية المزوجة بين العمل السياسي والاستمرار في المقاومة ظل هو الأمر السائد، إلى أن استطاعت حركة حماس، وبصورة ربما فاجئت المراقبين، أن تنجح في كسب الرهان، على الأقل عبر ثلاث محطات كبيرة، وبكفاءة عالية، دون أن تنكسر، بل أن تفرض شروطًا جديدة في اللعبة السياسية وتحسين شروط أداء المقاومة.

أ- تنفيذ عملية الوهم المتبدد (تموز ٢٠٠٦) والتي استغرقت إعدادًا وتجهيزًا عدة أشهر، جُلّها ضمن الفترة الزمنية التي كانت حماس في الحكومة.

ب- الاحتفاظ بالجندي الإسرائيلي كل هذه المدة، وإدارة مفاوضات صعبة وقاسية، مشبعة بروح التحدي، لإطلاق سراحه مقابل مئات الأسرى الفلسطينيين.

ج- تفعيل حرب الصواريخ كجزء من حرب ردعية ضد أساليب الاحتلال العدوانية، والقدرة على الاستمرار بهذه الحرب، وعدم الانكسار أمام الهجمة الإسرائيلية، وصولاً لفرض التهدة الأخيرة (تشرين ثان ٢٠٠٦)، التي أرغم الاحتلال بموجها على وقف عدوانه على غزة، وسحب جنوده مقابل وقف إطلاق الصواريخ على البلدات الإسرائيلية.

الثانية: هل وجود حماس في الحكومة والعمل السياسي فرصة لتعزيز وتطوير خيار المقاومة أم إضعافه؟

وهنا يمكن رصد عدة أمور، من المهم أخذها بعين

استطاعت المقاومة الفلسطينية أن تُدخل إلى فلسطين كميات كبيرة من السلاح، عبر الأنفاق في غزة، أو عبر تجنيد العديد من الجهات لشراء السلاح وتهريبه

ملاح مشروع المقاومة المستقبلي:

مما لا شك فيه أن المقاومة الفلسطينية حققت كسبًا كبيرًا من خلال انخراطها في الانتفاضة الأولى والثانية، على صعيد إعادة تأهيل بنيتها وتطوير إمكاناتها، أو تعزيز شرعيتها بين الجمهور ومن خلال نسج شبكة من العلاقات الداخلية والخارجية.

ولعل سلسلة المواجهات التي خاضتها المقاومة، ومجابهتها المباشرة مع المشروع الاحتلالي، بكل إمكاناته العسكرية والأمنية، أكسبها الكثير من الخبرات وزودها بالكثير من التجارب.

وإذا أضيف إلى ذلك شبكة العلاقات التي أوجدتها وعمقتها المقاومة مع الجوار العربي والإسلامي، واحتكاكها مع تجارب مقاومة أخرى، ورصدها الحثيث لتطور آليات عمل كل منها، نجاحًا وإخفاقًا، كل ذلك سمح لها بامتلاك ثروة هائلة من الخبرات والتجارب، التي يمكن البناء عليها لبناء المشروع المستقبلي للمقاومة في فلسطين.

ولعل من أهم ما تعكف عليه المقاومة الفلسطينية هذه الأيام، وضمن رؤيتها للعمل المستقبلي للعقد القادم، بحسب الكثير من المراقبين، محاولة تطوير أدوات فعلها العسكري بالتزود بالسلاح المناسب القادر... أولاً: على ردع جريمة الاحتلال. وثانيًا: على منعه من اختراق الجغرافيا الفلسطينية المأهولة بالسكان أو المحررة.

وفي هذا السياق تحاول المقاومة الفلسطينية المزاجية بين الفعل السياسي والعمل العسكري، لزيادة المساحات غير الخاضعة لنفوذ وسيطرة جيش الاحتلال، دون أن يكون ذلك على حساب الحقوق الفلسطينية الكاملة، أو فرض شروط وقيود على عمل المقاومة، وهي معادلة صعبة، إلا أن التحرك بها ليس مستحيلًا، ولعل المقاومة حققت بعض النجاحات على هذا الصعيد.

ومن زاوية أخرى لا ترى المقاومة الفلسطينية نفسها نبأً شيطانيًا مُنبئًا عن الأمة، وثمة قراءة تدرك المقاومة

أهميتها لإنجاز المشروع الكلي/الاستراتيجي لها؛ حيث تشهد المنطقة العربية والإسلامية حراكًا يدفع باتجاه التحرر والاستقلال من الهيمنة والنفوذ الأجنبي، وتراجع حضور ونفوذ القوى الدولية في القرار السياسي والسيادي للمنطقة، وأبرز وجوهه الانكفاء الأمريكي في العراق وأفغانستان ولبنان والصومال والسودان،.. فضلًا عن تدهور القوة الردعية لجيش الاحتلال الإسرائيلي بعد العدوان الأخير على لبنان وعجزه عن تحقيق أهدافه في غزة. وهو ما يعني أن المقاومة تدرك أنها ليست في ضيق من الوقت، ولا محتاجة لاعتساف الخطوات أو الانكسار وإجراء مقايضات صغيرة، طالما أن مسار الفعل، محليًا وإقليميًا، يتحرك وفق نسق صاعد، بل ثمة من يرى أن المقاومة الفلسطينية يمكن لها أن تلعب، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، دورًا مهمًا في تعزيز برنامج الاستقلال والتحرر في المنطقة في مواجهة مشروع التغريب والتبعية للمشروع الأمريكي/الإسرائيلي.

وتأسيسًا على هذه القراءة وربطها بالمحيط، تلتقط المقاومة وتأخذ بالاعتبار جملة من الإشارات أهمها:

- أن فقدان «إسرائيل» للأمن والازدهار الاقتصادي، واستمرار القطيعة مع الجوار يقود إلى تحقيق نتيجتين مهمتين:

الأولى: إضعاف موجات الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وزيادة حجم الهجرات العكسية.

الثانية: اضطراب الحكومة الإسرائيلية لتقديم تنازلات على صعيد الأرض، وتفكيك المستوطنات، والاعتراف بالمزيد من الحقوق الفلسطينية.

- الوضع السابق في سياق حديث «إسرائيل» عن القنبلة الديموغرافية التي يمثلها تنامي الكثافة السكانية الفلسطينية بين النهر والبحر، يعني تأكل فكرة ومفهوم الدولة اليهودية؛ حيث تضيق الجغرافيا وتتضاءل الميزات، وتراجع نسبة السكان اليهود.

- الإسرائيليون يتحسبون من تطوير المقاومة تقنيات الصواريخ، أو امتلاك أسلحة ذات قدرات تدميرية عالية، كيميائية أو جرثومية، أو القدرة على تنفيذ عمليات استراتيجية كبيرة تُشكّل صدمة للمجتمع الإسرائيلي، على شاكلة: ضرب أبراج أو مطارات، أو محطات للطاقة والوقود، أو تسميم شبكات مياه الشرب.

والخشية هنا مركبة، أن تقوم بهذا الفعل جهات فلسطينية؛ أو أخرى عربية أو إسلامية، وهو ما يُعقّد الأوضاع ويُصعّب قدرة «إسرائيل» على الرد أو الردع.

- دولة «إسرائيل» تعيش حالة تراجع في المعنويات والتعبئة والإيمان بالمشروع الصهيوني، بعد انقراض ما يسمونه جيل الرواد والتأسيس، على مستوى القيادة وعلى مستوى الجمهور، فثمة جيل إسرائيلي جديد يحكم سلوكه وارتباطه بالدولة ما تطرحه من ميزات وما توفره من ضمانات لحياة مرفهة، وهو جيل يتم التشكيك بصموده إذا ما تعرض لاختبار عصيب، ضمن أي مستوى من الصراع، والهروب من الشمال ومن سيدروت خشية الصواريخ مثال حي وقريب، وإذا كانت «إسرائيل» في مرحلة معينة حاولت الترويج لما يتمتع به جيشها من روح معنوية وقدرات قتالية أتاحت لها هزيمة ثلاثة جيوش عربية مجتمعة، فالיום يظهر أن معنويات الجندي الإسرائيلي تتهاوى، ويعجز عن الدفاع عن نفسه، أو تحقيق انتصارات حاسمة في مجابهات مع فتية فلسطينيين لا يملكون عُدة، ولم يتلقوا تدريبًا كافيًا، فضلًا عن تردي الروح المعنوية للجمهور الإسرائيلي وشعوره بالإحباط.

- المشروع الصهيوني في العقدين الأخيرين شهد تراجعًا كبيرًا، فبعد وقف الامتداد نحو الخارج (وهذا بحد ذاته إنجاز ضخم يُسجل، وقبل أي شيء آخر، في رصيد المقاومة)، بدأت عمليات الانكفاء والتراجع تتوالى، ولعل الانسحاب من جنوب لبنان، ثم من غزة، ثم بلورة مشروع تفكيك المستوطنات بعدما كان ذلك محرّمًا وخطأً أحمر للاحتلال، متزامنًا مع الاعتراف بحل الدولتين، والذي يعني سقوط مفهوم وشعار «أرض إسرائيل الكاملة»، تُشكل بعض مظاهر هذا الانكفاء المرشح للمزيد من الاستمرار. وهو ما يمنح المقاومة دافعية للمزيد من الصمود والاستمرار؛ باعتبار أنها لا تتحرك في الفراغ، وأن تضحياتها لا تذهب هدرًا، بل أنجزت أولاً: حماية للمنطقة. وثانيًا: انكفاء في مسيرة المشروع الصهيوني، وتراجع المشروع الصهيوني في مقابل تقدم مشروع استقلال الأمة وتعزيز سيادتها، يعملان بشكل متوازٍ لإنجاز البيئة المناسبة لاحتضان المقاومة وتوفير شروط تطورها واستمرارها وانتصارها، وهو ما تقرأه المقاومة وتبني عليه.

- الإسرائيليون يعيشون مرحلة من التشكك في إمكانية استمرار دولتهم، في هذا البحر المعادي من العرب والمسلمين، وهم يتساءلون - وربما بصوت مرتفع، كما في وسائل إعلامهم - إلى أي مدى يمكن لدولة «إسرائيل» أن تعيش على حد السيف؟، بل هناك من يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك التحسب من أن يكون حلم الدولة اليهودية المنقذة تحول إلى كابوس مرعب، فمن أجل إدامة وحماية هذا الدولة، ينبغي على اليهود أن يكونوا غير آمنين في كل الدنيا، بعد تحولهم إلى أهداف مُغرية لما يسمونه «الإرهاب الإسلامي»، وأن عليهم أن يدفعوا أثمانًا باهظة من حياتهم وأموالهم لإدامة هذا الوجود المرفوض وإنعاشه، الذي ما عاد آمنًا ولا يتمتع بالازدهار، في ظل فشل مشروع التعايش مع الفلسطينيين والتطبيع مع الجوار العربي والإسلامي.

معلومات إضافية

الشيخ عز الدين القسام:

وُلد عز الدين القسام في بلدة (جبله) التابعة لقضاء اللاذقية في سورية عام ١٨٨٢، نشأ في أسرة ريفية عُرفت بالعلم والتقوى، أبوه الشيخ عبد القادر مصطفى القسام من المشتغلين بعلوم الشريعة الإسلامية، وأمه حليلة قصاب من عائلة علم ودين.

تعلم عز الدين في كُتّاب البلدة القراءة والكتابة وتلاوة القرآن الكريم، وتميز بنبوغه وتفوقه على أقرانه وامتاز بميله للتأمل وطول التفكير.

كان يرافق اهتمام الشيخ بدروس العلم اهتمام آخر بحركات التحرر التي كان يُغذيها رجال الأزهر، ففهم عز الدين أن الإسلام دين عز وقوة وتحرُّر وجهاد.

ثم عاد القسام إلى جبله عام ١٩٠٦ بعد أن قضى عشر سنوات في الدراسة في الأزهر، بعدها حصل على شهادة الأهلية، ومن ثمّ قام برحلة إلى تركيا للاطلاع على طرق التدريس في جوامعها، وبعد عودته عكف على التدريس في زاوية والده، في جامع السلطان ابن أدهم قطب الزاهدين.

يعتبر القسام صاحب دعوة مستقلة، وأسلوب متميز، وحركة جهادية رائدة سبقت جميع الاتجاهات في ميدان الجهاد المعاصر في فلسطين.

ويتلخص هذا الأسلوب في تربية جيل من المجاهدين، كان يختارهم من الذين يحضرون دروسه ومواعظه، ويقوم بتهيئتهم وإعدادهم للجهاد، ويكون منهم خلايا جهادية، تقتصر عضويتها على نفر من المؤمنين الصادقين الذين لديهم الاستعداد الكامل للتضحية والفداء.

وعندما تم إنشاء القوة المجاهدة بشكل متكامل، كانت مقسمة إلى وحدات مختلفة المهام، حيث لكل وحدة دور خاص بها تتولاه، وهذه الوحدات هي:

الأولى: وحدة خاصة بشراء السلاح.

الثانية: وحدة خاصة للاستخبارات ومراقبة تحركات العدو البريطاني واليهودي.

الثالثة: وحدة خاصة بالتدريب العسكري.

الرابعة: وحدة خاصة للدعاية في المساجد والمجتمعات، وأبرز أعمالها الدعوة إلى الجهاد.

الخامسة: وحدة العمل الجماهيري والاتصالات السياسية.

السادسة: وحدة جمع المال من الأعضاء والأنصار، ورعاية أسر المعتقلين والشهداء.

وكان من أعمال القساميين العديدة الواسعة النطاق: التصدي لدوريات الجيش والشرطة، وقطع طرق المواصلات، والإغارة على ثكنات الجيش ومراكز الشرطة، ومهاجمة حرس المستعمرات اليهودية، وزرع الألغام والمتفجرات فيها.

وفي الوقت الذي اعتُبرت فيه أعمال القسام بمثابة الروح التي سرت في أوصال الأمة، فحرّكت الهمم وشدت العزائم، وحفزت الناس إلى العمل، كانت الحكومة البريطانية تعلن عن مكافآت ضخمة لمن يدلي بأية معلومات عن منفذي هذه الأعمال؛ لأنها فعلاً أَلقت الرعب في قلوب اليهود الذين رأوا ولأول مرة عملاً جديداً من حديد و نار، وهذه لم يتعود عليها اليهود في فلسطين، وازدادت الحكومة البريطانية واليهود ذعراً وبثوا الأرصاء، ونشروا الجواسيس في الليل والنهار، وصار الاعتقال لمجرد الشبهة.

لذا أصبحت تحركات جماعة القسام تلاقى صعوبة شديدة؛ إذ استطاعت الشرطة الإنجليزية الحصول على معلومات بشأن عدد أفراد الجماعة وأسمائهم وأسلحتهم، نتيجة التحقيقات المكثفة التي قامت بها، وكذلك استطاعت الحصول على معلومات تساعدهم أكثر وأكثر على تحديد مكانهم.

وأخيراً وفي أحراش يعبد في منطقة جنين يوم ٢٠ تشرين ثاني عام ١٩٣٥، حددت الشرطة البريطانية مكانهم وهاجمتهم بقوات عسكرية كبيرة، ودارت معركة رهيبية بين المجاهدين والشرطة، صمد فيها رجال القسام، وقاتل شيخهم قتال الأبطال، وظل يكافح حتى خر صريعاً في ميدان الجهاد شهيداً كريماً .

كان لاستشهاد القسام أعمق الأثر في شباب فلسطين في الثلاثينيات والأربعينيات، كما أصبح القسام رمزاً للتضحية والفداء، مما جعل بعض المؤرخين يعتبرونه بحق شيخ ثوار فلسطين.

المعجم الجامع في تراجم العلماء وطلبة العلم المعاصرين،
كتاب إلكتروني غير مطبوع، الموسوعة الشاملة.

مؤشرات إحصائية:

الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني ٢٠٠٥ / ١٢ / ٤:

* نسبة الأفراد الذين تقل أعمارهم عن ١٨ سنة في منتصف عام ٢٠٠٤، بواقع ١,٩٥٤ مليون طفل، من إجمالي عدد السكان في الأراضي الفلسطينية، والذي يبلغ نحو ٦,٣ مليون فرد في منتصف عام ٢٠٠٤.

وأشارت المعطيات، إلى أن تقدمًا واضحًا قد طرأ على الوضع الصحي للطفل الفلسطيني في العديد من الجوانب، على الرغم من الفجوات التي بقيت تسيطر على جوانب أخرى، نتيجة انتهاج سياسة واضحة تبني البرنامج الوطني للأطفال، إضافة إلى استدامة العمل من أجل تطبيقه.

* انخفضت معدلات وفيات الرضع من ٥,٢٥ لكل ١٠٠٠ مولود حي في الفترة (١٩٩٥ - ١٩٩٩) إلى ٢,٢٤ لكل ١٠٠٠ مولود حي في الفترة (١٩٩٩ - ٢٠٠٣)، كذلك انخفضت معدلات وفيات الأطفال دون سن الخامسة من ٧,٢٨ لكل ١٠٠٠ مولود حي في الفترة (١٩٩٥ - ١٩٩٩) إلى ٣,٢٨ لكل ١٠٠٠ مولود حي في الفترة (٢٠٠٣ - ١٩٩٩).

* أهم الأسباب المؤدية لوفيات الرضع في الضفة الغربية، كانت نتيجة للولادة المبكرة، ونقص الوزن، وبسبب أمراض الجهاز التنفسي؛ بما فيها الالتهابات والتشوهات الخلقية، بينما في قطاع غزة فقد بقيت نسبة وفيات الرضع الناجمة عن الولادة المبكرة ونقص الوزن، تحتل المرتبة الأولى، فيما سجل انخفاضًا على الوفيات الناجمة عن التهابات الجهاز التنفسي.

* كما ارتفعت نسبة الرعاية الصحية بعد الولادة من ٣,٢٦٪ عام ٢٠٠٠ إلى ٤,٣٤٪ عام ٢٠٠٤، حيث تبين أن هناك زيادة في عدد مراكز الرعاية الأولية، التي تشرف عليها وزارة الصحة بما فيها مراكز الأمومة والطفولة؛ إذ بلغت ٣٩١ مركزًا، منها ٣٣٧ مركزًا في الضفة الغربية و٥٤ مركزًا في قطاع غزة.

* عدد الطلبة في المدارس في الأراضي الفلسطينية بلغ في مطلع العام الدراسي ٢٠٠٤ - ٢٠٠٥، ما مجموعه ٩٣٥,٠٤٣، طالبًا وطالبة، وتشكل الإناث منهم ما نسبته ٥٠,٢٪.

* التعليم الأكاديمي أكثر استقطابًا للطلبة للالتحاق به من التعليم الثانوي المهني، فقد بلغ عدد الطلبة الملتحقين بالتعليم الثانوي المهني ٢٧٩,٥ طالبًا وطالبة في العام الدراسي ٢٠٠٤ - ٢٠٠٥، أي ما نسبته ٧,٤ من مجموع الطلبة الملتحقين بالمرحلة الثانوية.

* السُّعَب الصفية في المرحلة الأساسية أكثر اكتظاظًا في مدارس قطاع غزة منها في مدارس الضفة الغربية، فقد بلغت في قطاع غزة ٣,٤٢ طالبًا لكل شعبة، وفي الضفة الغربية ٢,٣٢ طالبًا.

ملف التقرير - المقاومة

* ٥, ٧١٪ من الأسر الفلسطينية لديها أطفال لا يتوفر لديها جهاز حاسوب، و٨, ٤٪ من الأسر لا يتوفر لديها جهاز تلفزيون، و٦, ٢٨٪ لا يتوفر لديها لاقطاً فضائياً (ستالايت)، و٧, ٩٠٪ لا يتوفر لديهم خدمة الإنترنت في البيت.

* هناك زيادة في عدد المكتبات المنزلية لدى الأسر التي لديها أطفال، وهناك اختلاف واضح بين الأطفال الذكور والأطفال الإناث في طبيعة الأنشطة التي يمارسونها.

* هناك ٦٨٠, ١ طفلاً، بواقع ٥٤٢, ١ طفلاً من الذكور و٦٣٨ طفلاً من الإناث، يعيشون في ٢٥ دار أيتام، وأنه تم متابعة ٨٣٩, ٧ قضية خلال العام ٢٠٠٣، منها ٩٩١, ٤ قضية لأطفال حرموا من المأوى نتيجة هدم المنزل أو احتراقه، وقد تركزت غالبية هذه القضايا في محافظات غزة.

* بلغ عدد الشهداء من الأطفال منذ بداية الانتفاضة وحتى ٣١/٥/٢٠٠٥ ما مجموعه ٧٥٢ شهيداً، منهم ٣٢٩ شهيداً في الضفة الغربية و٤٢١ في قطاع غزة، إضافة إلى شهيدين في الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨.

* عدد الجرحى بلغ منذ اندلاع الانتفاضة وحتى شباط/فبراير ٢٠٠٥، ما يقارب ٤٤, ٥٠٠ جريح، وعدد الأطفال المعتقلين بلغ ٣١٠ أطفال، في نفس الفترة.

* ٤, ٣٪ من الأطفال تركوا التعليم بسبب الإجراءات الإسرائيلية والوضع الأمني.

المصدر: وكالة الأنباء الفلسطينية وفا، ٤/١٢/٢٠٠٥
عن الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني.

من تم اعتقالهم خلال انتفاضة الأقصى حسب ما هو مُوثَّق في دائرة الإحصاء الفلسطينية:

المنطقة	العام الأول ٢٠٠٠/٩/٢٨	العام الثاني ٢٠٠١/٩/٢٩	العام الثالث ٢٠٠٢/٩/٢٩	العام الرابع ٢٠٠٣/٩/٢٩	العام الخامس ٢٠٠٤/٩/٢٩	العام السادس ٢٠٠٥/٩/٢٩	الإجمالي ٢٠٠٠/٩/٢٨ ٢٠٠٦/٩/٢٨	%
الضفة الغربية ومناطق أخرى	٦٩٩٧	١٠٨٦٣	٩٥٣٠	٣٨٤١	٣٩٥٠	٤٤٠٣	٣٩٥٨٤	٩٦,٢
قطاع غزة	١٥٨	٣٨٧	٢٦٦	٤٦٨	١٧٣	١٢٠	١٥٧٢	٣,٨
الإجمالي	٧١٥٥	١١٢٥٠	٩٧٩٦	٤٣٠٩	٤١٢٣	٤٥٢٣	٤١١٥٦	١٠٠

شهداء انتفاضة الأقصى في خمسة أعوام:

م	السنة	عدد الشهداء	ملاحظات
١	٢٠٠٠	٣٣١	بدأت الانتفاضة في ٢٩ / ٩ / ٢٠٠٠
٢	٢٠٠١	٦١٣	
٣	٢٠٠٢	١٠٥٨	في نيسان تم اجتياح الضفة الغربية وارتكاب مجازر في البلدة القديمة في نابلس ومخيم جنين
٤	٢٠٠٣	٥٠٣	
٥	٢٠٠٤	٨٢٩	
٦	٢٠٠٥	١٤٥	
	المجموع	٣٤٧٩	

المركز الفلسطيني للإعلام، شهداء انتفاضة الأقصى المباركة